ممنوع الكذب

فى هذا الوقت من المساء، لم يكن النهار قد جذب آخر خيوطه ليترك مكانه لليل، ليبسط رداءه على كافة الأرجاء، قادت د. جنات السيارة فى شارع ترعة جزيرة بدران، وعلى المقعد الأمامى إلى جوارها جلس حامد يفكر فى صمت وسكون.

انعطفت السيارة يمينا، وسارت عدة أمتار فى شارع كورنيش النيل، وبينما حركت د. جنات عجلة القيادة لتعبر الطريق. قالت:

- أجمل مافى هذا الكازينو إنه على مقربة من العمارة.

هز حامد رأسه علامة على الموافقة، وسارت السيارة إلى الجانب الأيمن من الطريق، ووقفت بجوار الطوار أمام حديقة روضة النيل، وهبط حامد، ووقف ينتظر قدوم د. جنات.

بعد قليل، وكان حامد ود. جنات جالسين على مقعدين متقابلين تفصل بينهما منضدة صغيرة، وضعت

على شاطئ النيل، وتبعدهما عن مياه النيل مسافة لاتزيد عن مترين.

وكان حامد بين وقت وآخر ينظر إلى د. جنات فى تساؤل، وكانت د.جنات تعرف ما يريد أن يعرفه حامد، غير أنها تظاهرت باللامبالاة، وآثرت أن تتريث إلى أن يبدأ هو الحديث.

على حين غرة، تساءل حامد:

- ماذا فعلت مع أبيك بشأن هذا القادم الجديد؟

أجابت جنات بثقة:

- لاشئ.. لم أوافق على الخطبة. قلت لأبى إننى لن أفكر فى ذلك قبل حصولى على الماجستير.

لاح السرور على وجه حامد، وانتابه الشعور كأن انسكب فى جوفه دفقة من الشعور بالطمأنينة والسكينة، ورقص قلبه طربا بين ضلوعه، حتى كاد يقفز من مكانه من شدة الفرح والسرور،وجاشت فى صدره مشاعرحب عارمة، فرنا إلى جنات فى هيام. وقال:

- سأنتظر أسبوعا.. وأتقدم لخطبتك حتى لايعتقد أبوك إننا كنا على اتفاق.. لن تندمى على أنك فعلت هذا.

- أعلم ذلك.

وارتسمت على شفتى جنات ابتسامة رائعة زادت وجهها جمالا وتألقا، وأطرقت برأسها فى حياء.

عندئذ، تذكر حامد أن السهد والأرق لازماه طوال الليلة الماضية، وأن النوم خاصم عينيه، فأخذ يتقلب فى فراشه، وكأنه نام على فراش امتلأ سطحه بأشواك ذات أسنة مدببة حادة، تنغرس فى جسده وتؤلمه، وتجعل النوم يفر من عينيه.

وكانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة تقريبا، عندما ضاق حامد بالرقاد، ونهض قائما، وغادر الفراش، وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهوبا، وبدا كأنه ينتظر نتيجة أمر هام يتوقف عليه مستقبله، وأخذ يتمتم فى سره داعيا الله أن يوفق جنات فيما انتوت أن تفعل.

نظرت جنات إلى حامد، ورأته مستغرقا فى التفكير، فسألته عما يضايقه، فأجاب بأن لاشئ، وأخبرها لسان حاله بأنه مهموم، فلاذت بالصمت لأنها أدركت من حديثه بعد ذلك أنه يخشى أن يرغمها أبوها على الزواج من ابن زميله وصديق عمره، وهو طبيب ناجح لديه مستشفى استثمارى.

فى هذه اللحظة، ارتسم على صفحة خيالها أن إسراء زميلتها بقسم الجراحة العامة اكتشفت أن خطيبها المهندس يعمل سمسارا فى بيع السيارات المستعملة، فابتسمت عندما تذكرت أنها نصحت إسراء بأن تفسخ الخطبة.

لمح حامد شرودها وابتسامها، فسألها عن السبب، وأخبرته بما دار فى خلدها، فانتزع من بين شفتيه ابتسامة، لكنه انتابه الشعور كأن دلوا مملوءا بالماء المثلج صب على رأسه فى دفعة واحدة فجأة، وكاد يرتعد من شدة الخوف، وألجمت المفاجأة لسانه، فأمسك عن الحديث، واستولت عليه الأفكار والهواجس، ولاح عليه السهوم.

فكر حامد، فهو مهندس نشيط بقسم المشروعات بوزارة الإسكان، وأن العمل الإضافى الذى يمارسه لم يكن إلا لزيادة دخله، وتحقيق طموحه فى الحصول على المال اللازم لإقامة شركة المقاولات الهندسية التى يريد إقامتها، وعندما لم يوفق فى الحصول على عمل مناسب اضطر إلى القيام ببعض عمليات السمسرة فى بيع الأراضى والعقارات، لقد أقنع حامد نفسه بأنه لن يستمر فى هذا العمل طويلا، لذا، أخفى حقيقة عمله الإضافى عن الجميع حتى لاتتسرب كلمة من أحد أفراد أسرته إلى أسرة جنات التى تقيم فى شقة بنفس العمارة التى تقيم فيها أسرة حامد، وقد ربطت بين أفراد الأسرتين أواصر صداقة وروابط ود ومحبة منذ أكثر من ثلاثين عاما.

نفض حامد عن ذهنه هذه الأفكار، وتمالك السيطرة على رباطة جأشه. وقال:

- مؤكد أنه لديه أعذارا.

قالت جنات فى شئ من الاحتداد:

- لاتوجد أعذار تبرر موقفه. هل يفخر والدها بأن ابنته الطبيبة الناجحة متزوجة من سمسار يبيع السيارات القديمة؟!

فأجاب حامد متظاهرا بشئ من الاستنكار:

- لا..لا..لايصح هذا.

وفكر لحظة. ثم أردف:

- دعك من هذا ولنتحدث فيما يهمنا.. موضوع الخطوبة.

- ليكن.

●●●

بعد قرابة عام، قاد حامد سيارته فى شارع شهاب بحى المهندسين، وجنات جالسة إلى جواره تتأمل منظر عمارة حديثة البناء، تقع على الجانب الأيمن من الطريق فى سرور وغبطة، وكان حامد يصف لها المكان بكلمات مقتضبة، بينما أخذت سرعة السيارة تتناقص إلى أن وقفت أمام باب العمارة.

وبعد أن انتهت جنات من الفرجة على الشقة، استوقفها حامد فى الردهة على مقربة من الباب، وتامل التعبيرات التى ارتسمت على ملامح وجهها بسرور بالغ،

وكانت بيده ورقة وضع عليها مفتاح الشقة، وقدمهما إلى جنات. وقال بمرح:

- أهدى إلى حبيبتى عقد الشقة والمفتاح.. أريد لأفضل طبيبة أن تقيم أفضل مركزطبى فى الحى.

شعرت جنات بالدهشة لوقع المفاجأة، ولم تستطع أن تصدق نفسها، وأرادت أن تعتذر لحامد عن قبول الهدية، لكن حامد أسكتها بإشارة من يده. وقال:

- لست أقل مهارة من الطبيب الماهر ابن زميل أبيك.. لكن أرجو ألا تنسى المرضى الفقراء.. نذهب غدا إلى الشهر العقارى لتسجيل العقد. والآن.. هيا بنا.

واتجه صوب الباب، وتبعته جنات كالمنومة، فخرجا من الباب، وأغلقت جنات باب الشقة خلفهما وهى تبتسم فى سرور.

بعد شهور، اتسعت أعمال حامد وقام بكثير من العمليات الناجحة التى أدت إلى زيادة دخله، فشعر بالرضا عن نفسه، غير أن شعوره بالخوف من أن تكتشف جنات حقيقة عمله لم تفارقه، فظل حريصا على إخفاء أموره عنها.

لكن فى أحد الأيام، كان حامد واقفا على مقربة من باب عمارة منتظرا مجئ الممثلة الشهيرة علياء صبرى، وكانت تحكم إغلاق أبواب سيارتها، وحانت منه التفاتة

إلى ناحية من الشارع، ووقع بصره على جنات تسير على الجانب الآخر من الشارع، وعندما أبصرته عبرت الشارع بسرعة، وذهبت إليه، وقد توجت شفتيها ابتسامة لم تستطع أن تخفى ما لاح على وجهها من آيات الدهشة والتعجب، وأرادت ان تستفسر منه عما أتى به إلى هذا الشارع.

لكن علياء سبقتها فى الوصول إلى حامد، ووضعت يدها اليمنى على ذراعه الأيسر. وقالت:

- هيا بنا ياحضرة المهندس.. أخشى أن أتأخر على ميعاد التصوير.

استدار حامد واتجه صوب باب العمارة بسرعة، وقد استندت علياء إلى ذراعه، ولم يستطع النظر إلى جنات التى وقفت تنظر إليهما وهما يدلفان من باب العمارة، ويتجهان صوب المصعد فى غيظ وضيق شديدين، ثم غادرت المكان وقد قر عزمها على أنها لاتتحدث إلى حامد، إلا بعد أن يفسر لها ماحدث، غير أنها ما لبثت أن تذكرت أنه يحتمل أن ينشئ لها أحد الأبنية فتبدد الكثير من غيظها وغضبها.

وما أن انتهى حامد من عملية بيع الشقة لعلياء حتى عاد إلى منزله، لأنه فى ذلك اليوم كان فى أجازة من عمله، وقد أضناه التفكير طوال الطريق فيما يجب أن

يفعل ليعتذر إلى جنات، فقد اتصل بها مرارا ولم يتلق إجابة، وعندما ألح فى طلبها أغلقت الهاتف المحمول، فأدرك أنها أساءت فهمه، وأنه ينبغى أن يوضح لها حقيقة الموقف.

وكانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساء بقليل عندما ضغط حامد على زر جرس باب شقة د. أديب، وما أن فتحت أم جنات الباب حتى بادرها حامد بالسؤال عن جنات، وأخبرها بأنه يريد استشارة طبية لأنه جرح أثناء العمل.

عبرت أم جنات عن ضيقها بما حدث له، وتمنت له أن تكون العواقب سليمة وهى تقوده إلى حجرة المعيشة، ودعته إلى الجلوس، وذهبت إلى جنات فى حجرتها لتخبرها.

أخبر حامد جنات بانه اصطحب علياء إلى العمارة ليتوسط لها لكى تشترى شقة، وتحدث إلى جنات عن طبيعة العمل الإضافى الذى يمارسه لكى يزيد دخله، فانتاب جنات شئ غير قليل من الطمأنينة، وتساءلت:

- لماذا أخبرتنى بأنك تعمل بشركة مقاولات؟

شعر حامد بشئ من الارتباك. وأجاب:

- علمت مدى حرصك على المظهر الاجتماعى، وأشفقت من أن يؤثر ذلك على علاقتك بى، خفت أن

تتركينى وأنت تعلمين مدى حبى لك، وتعلقى بك منذ صباى.. إننى لاأستطيع أن أحيا بدونك.. حرصى عليك ياجنات جعلنى أكذب.. لكننى أقسم لك...

لم يكمل حامد عبارته لأنه تغلب عليه انفعال شديد، وانتابه الشعور كأن شيئا أمسك لسانه ومنعه من النطق، فساد الصمت برهة، وأرادت جنات أن تستحثه على الحديث. فتساءلت:

- علام تقسم؟

أجاب حامد:

- أقسم لك إننى لن أستمر فى هذا العمل بعد أن يصير لدى المال الذى يكفى لإقامة شركة المقاولات الخاصة بى. إننى جمعت مبلغا لابأس به.. لكنه يكفى ليعيننا على أن نعيش فى مستوى معيشة مناسب. وسوف أعمل لأجمع المزيد.

لمس هذا الحديث وترا حساسا فى نفس جنات، فشعرت بشئ من التأثر، وأدركت أنه صادق فى كل ما يقول. فقالت:

- لم أعلم أنك اصطحبت علياء بدافع العمل.. ظننت أنك على صلة بها وتخدعنى وتتظاهر بأنك تحبنى.. وربما كنت...

- كنت ماذا؟

- ربما كنتما متزوجان زواجا عرفيا أو شئ من هذا القبيل، لقد كذبت علىّ ياحامد ولن أتحمل أن تكذب علىّ مرة ثانية.

أفعم صدر حامد بمشاعر شتى، امتزج فيها الشعور بالحب والخجل والتأثر والحنان، وكادت الدموع تطفر من عينيه، فأطرق ليخفى حقيقة شعوره، وقال فى نبرات صوت خفيض كانه قادم من أغوار بئر عميق:

- لن أكذب.